المحاضرة الثالثة: إشكالية السواء و اللاسواء في علم النفس المرضي.

تمهيد:

يعتبر التفريق بين السواء و اللاسواء من الإشكاليات المركزية في علم النفس المرضي، لما له من انعكاسات نظرية، تشخيصية، اكلينيكية و أخلاقية، فهذا التفريق لا يقوم على حدود مطلقة، بل يتحدد ضمن سياقات ثقافية، اجتماعية و تاريخية متغيرة. أشار Georges Ganguilhem الى أن المرض ليس مجرد انحراف كمي ن العادي، بل هو نمط أخر من الحياة بقوانين مختلفة. سنقوم في هذه المحاضرة بتقديم اطار مفاهيمي و منهجي لفهم السواء و اللاسواء و محدداتهما و معايير التفرق بيمهما في علم النفس المرضي.

1- السواء (العادي):

1-1 تعريف: يوجد تعاريف كثيرة و متنوعة لمصطلح السواء، منها تعريف حامد عبد السلام زهران: "السواء هو القرة على توافق الفرد مع نفسه و بيئته و الشعور بالرضا في تحديد أهدافه و الفرد السوي هو الذي يتطابق سلوكه مع سلوك الشخص العادي في تفكيره و مشاعره و سلوكاته و يكون متوافقا شخصيا و انفعاليا و اجتماعيا".

- يعرف السواء كذلك على أنه مصطلح مرادف لصحة النفسية، أي الخلو من الاضطرابات و المشكلات النفسية، كما يمكن تعريفه على أنه المتوسط أي كل ما لم يخرج عن القاعدة في الوسط الاجتماعي لمجموعة ما.

2-1 محددات السواء: وضع الباحثون مجموعة من الصفات المحددة للسلوك السوي، لخصها Janssen في 2015 فيما يلي:

- الفعالية: أي توجيه السلوك نح أهداف معينة و حل مشكلات محددة.
- الكفاءة: تتمثل في تقبل الذات، التسامح مع أخطاء الذات و القدرة على توجيه الطاقة و الابتكار.
- الملائمة: أي تطابق السلوك مع الواقع بمختلف تأثيراته و القدرة على التحكم في التقلبات المزاجية الانفعالية.
- المرونة: أي القدرة على التكيف و التوافق مع تقلبات الحياة و التصرف اتجاهها دون تصلب أو جمود.
- الاستفادة من التجارب السابقة، القدرة على التواصل الاجتماعي و تقدير الذات و التوافق معها.

2- اللاسواء:

1-2 تعريف: يمكن تعريفه على أنه الانحراف عما هو سوي و عدم التوافق الشخصي و الاجتماعي و الشخص اللاسوي هو الشخص الذي ينحرف سلوكه عن سلوك الشخص العادي في تفكيره و مشاعره و نشاطاته و يكون غير متوافق شخصيا و اجتماعيا.

2-2 محددات اللاسواء: يتميز السلوك اللاسوي بأربع محددات رئيسية هي:

- الانحراف: أي الاختلاف و بشكل ملحوظ عن القيم و القواعد لمجتمع ما، بالرغم من أنه يمكن أن تتغير قيم مجتمع ما مع مرورالوقت، مما يتسبب في تغيير وجهات النظر للانحراف.
- العجز: هو قصور في أحد أو بعض جوانب الحياة المهمة، مثل العمل أو العلاقات الشخصية.

- الخلل الوظيفي: يحدث عندما تتعطل أحد الميكانزمات الداخلية و تصبح غير قادرة على أداء وظيفتها الطبيعية.
- المعاناة النفسية: أي الشعو بالألم و عدم الراحة و تقرير الفرد عن نفسه أنه مريض و يحتاج الى علاج.
- الخطر: أي خطر القيام بسلوكات تشكل تهديد على الذات و الآخرين.

3- معايير الحكم على السواء و اللاسواء:

3-1 المعيار الذاتي: أي الحكم على السلوك انطلاقا من الأفكار و الآراء الفردية الذاتية، لكن هذا المعيار نسبي و غير موضوعي و يهمل الفروق الفردية.

3-2 المعيار الاجتماعي: يتخذ المعايير الاجتماعية أساسا للحكم على السواء من عدمه، فالسلوك السوي هو المتوافق اجتماعية و اللاسوي هو الغير متوافق اجتماعيا، كن المعايير الاجتماعية تختل من مجتمع لآخ، كما أنها متغيرة عبر الأجيال.

3-3 المعيار الاحصائي: حيث يتخذ المتوسط أو الوسيط الشكل العادي و اللاسوي هو الانحراف عن هذا المتوسط بالزيادة أو بالنقصان، لكن الخروج عن المتوسط لا يشير بالضرورة الى اللاسواء لأن القياس الموضوعي يختلف عن القياس النفسي النسبي.

3-4 المعيار المثالي: يضع معيار الكمال في تحديد السواء و الذي يتميز ب:

فهم الذات و قبولها و الواقعية و فهم المحيط.

التحرر من الصراعات الداخلية و القدرة على مواجهة الضغوط النفسية.

تنمية القدرات الجسدية و الاحتماعية و العقلية من أجل التكيف مع المحيط، لكن إمكانية الوصول الى الكمال غير واقع، فال يوجد انسان خال من التوتر و سوي دائما و بشكل كامل.

4- السواء و اللاسواء عند الطفل و المراهق:

تظهر الصعوبات في التفريق بين السواء و اللاسواء بشكل أوضح عند الحديث عنهما لدى الطفل و المراهق، نظرا للأسباب التالية:

- حالة النمو: كونهما لا يزالان في حالة تطور فان ظهور بعض الأعراض المرضية التي تشبه تلك التي عند الراشد لا تعتبر بالضرورة مرضية كالقلق و الخوف من الحيوانات و المثيرات البسيطة في عمر 4 و 5 سنوات فهي تساعده على التحكم في دوافعه و في المحيط الخارجي.
- النمو يمر بعدة مراحل و هو ليس متساوي في كل جوانبه، فقد يظهر بعض النكوص لكنه ليس دائما سلبي و انما هو يساعد على تجاوز صعوبات تلك المرحلة.
- قد يقوم المراهق بتبني بعض السلوكات الغير سوية و حتى المرضية كالتطرف و الانطواء و الخجل و هي من خصائص مرحلة المراهقة التي تعتبر أزمة بيولوجية و نفسية و اجتماعية أساسية في نم شخصيته و هذه السلوكات سرعان ما تزول بزوا الأزمة.
- الفوارق الفردية: يجب الأخذ بعين الاعتبار للفروق الفردية بين الأطفال في اكتساب المهارات و المعارف، فكل لطفل له ايقاعه و سرعته في ذلك.

خلاصة:

ان التفريق بين السواء و اللاسواء في علم النفس المرضي ليس عملية ميكانيكية، بل هو حكم اكلينيكي معقد يتطلب معرفة نظرية و حسا نقديا و فهما للسياق الإنساني و يظل هذا التفريق نسبيا، و قابل للمراجعة العلمية.